روضة الحكايات!!
(٢٠)

كتاب عن دمشق
في (٨٠) مجلداً!!

الدكتور
محمد عمر الحاجي

الطبعة الأولى

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية ـ دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ ـ هاتف : ٢٢٤٨٤٣٣ ـ فاكس : ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

(ختامه مسك)

.. بعدَ أن أنهىٰ (شعبان) محاضرتَه عن الفقيه (أبي جعفر الطحاوي) .

وقفَ أستاذُ مادةِ التربيةِ ، وبعد أَنْ شَكَرَ الطالبَ (شعبان) وأثنىٰ علىٰ جُهودِهِ وشجاعتِه... ، قال :

أيها الأحبابُ الكرامُ ؛ يَطيبُ لي أن أَزفَّ إليكم بشارةً ، ملخّصُها :

أنه لم يَبْقَ علىٰ افتتاحِ المدارسِ إلا أسبوعٌ واحدٌ ، لذلك ستكونُ المحاضرة القادمة مقسومةً إلىٰ قسمين ، القسم الأول : كلمةٌ موجَزَةٌ عن أحدِ الأعلامِ المسلمين ، والقسمُ الثاني : توزيعُ الجوائزِ

علىٰ بعض الفائزين في المعهد.. ، مع اختيارِ أفضلِ مُحاضر.. وأنفعِ محاضرةٍ أُلقيتْ أثناء الموسمِ الثقافي لهذا العام ، وسيُشْرِفُ علىٰ ذلك كلِّه أحدُ المسؤولين الكبار في وزارة الأوقاف ، والدعوةُ عامة... .

.. ودار الـزمـنُ دورتَـه ، واقتـربَ مـوعـدُ المحاضرةِ الأخيرةِ ، وقبل ساعةٍ من ذلك اكتظَّتِ القاعةُ بالزوّارِ ، مما اضطرَّ القائمين علىٰ أمورِ المعهدِ لأنْ يفتحوا كلَّ الغرف... ويضعوا فيها كراسي متلاصقةً تكفي للحضور .

ولما كانتِ الساعةُ السابعةُ مساءً ، أخذَ كلُّ واحدٍ من الحاضرينَ مكانَه ، بينما جَلَسَ الضيوف علىٰ المِنَصّةِ ، ثم رَتَّلَ الطالبُ الصغير (سليم) بعض الآيات من سورة المطففين .

ثم قَدَّمَ عريفُ الحفلِ الضيفَ الكبيرَ ، الدكتور

(زايد) وذلك لإلقاءِ كلمتِه القصيرة ، وللإشراف علىٰ توزيع الجوائز .

.. وبدأ الدكتور (زايد) كلمتَه بالتعليقِ علىٰ أواخرِ ما قرأ الطالبُ (سليم) وهو قوله تعالىٰ ﴿ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴾

[المطففين :٢٦].

وكان مما قاله :

يا أعزّاءنا الأماجدَ! إنّ الله تعالىٰ خَلَقَ هذه الدنيا داراً للعملِ والسعي ، وحدّثنا أنّ هناك داراً تكون بعدَها ، وهي الدارُ الآخرة ، وهي دارٌ لا عَمَلَ فيها أبداً ، إنما هي دارُ حسابٍ فحسب .

ولذلك فَمَنْ قَدَّمَ في دارِ الدنيا عملاً صالحاً ، فإنه سيجدُ نتيجةَ ذلك ، ومن ارتكَبَ العملَ السيىءَ ، فإنه سيجدُ نتيجة ذلك أيضاً ، مصداق ذلك قول الله سبحانه : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ

خَيْرًا يَـرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْـمَلْ مِثْقَـالَ ذَرَّةٍ شَـرًّا يَـرَهُۥ ﴾ [الـزلـزلـة: ٧ـ٨] أمـا مجـالات التنـافـس فـي الـخيـر ، فكثيرةٌ جداً ، بحيث تَضُمُّ أموراً لا ينتبه إليها الإنسان ، ولا يهتمُّ بها ، من ذلك مثلاً إبعاد حجرٍ أو شوكةٍ أو أوساخٍ عن طريق المارّة ، بل حتىٰ الكلمة الطيّبة فهي بابٌ من أبوابِ الخير عند الله سبحانه وتعالىٰ .

ومن أهمِّ الأمورِ التي تبقىٰ وتَخْلدُ.. ويستمرّ نفعُها علىٰ الإنسان الصّدقة الجارية ، مصداقُ ذلك قولُ النبيِّ ﷺ : « إذا ماتَ ابنُ آدمَ انقطعَ عملهُ إلا من ثلاثةٍ : صدقةٍ جاريةٍ ، أو علمٍ يُنتفع به ، أو ولدٍ صالحٍ يدعو له » .

أما ما يتعلّقُ باللباسِ والطعامِ والأثاثِ ونحوِ ذلك ، فإنه يَفْنىٰ هنا في الدنيا... ولا يتولّد عنه نَفْعٌ وما إلىٰ هنالك .

ولذلك فقد تَنافَس أجدادُنا في الأمورِ الخيّرة ، وبذلوا في سبيلِ الوُصولِ إلىٰ رضوانِ الله وجِنانِه الشيءَ الكثيرَ .

وما سمعتُموه عبر المُحاضراتِ التي أُلقيتْ عليكم خيرَ دليلٍ علىٰ ما أقولُ ، فكلُّ العلماءِ الكبار ماتوا ، ومضتْ عشراتُ بل مئات السنين علىٰ وفاتِهم .

... ، وها هي آثارُهم تَدلُّ عليهم ، وها نحن ـ وبعد عِدّة قرون ـ نستفيدُ مما صنّفوه في أيّ مجالٍ من مَجالاتِ العلوم .

وفي قراءةِ تاريخ وتراجم حياتِهم نرىٰ العَجَبَ العُجابَ ، ولأقتصرْ علىٰ مَثَلٍ واحدٍ ، من العلماءِ الذين كان لهم العلاقةُ الطيّبةُ مع دمشق الشام .

* * *

إنه الحافظ ابن عساكر

تابع الدكتور (زايد) قوله :

إنه العالِمُ (ابنُ عساكر) والذي له كُتُبٌ كثيرةٌ ، منها كتابٌ واحدٌ سَرَدَ فيه كلَّ ما له علاقةٌ بدمشق ، ابتداءً من الحديثِ عن فضائِلها ومروراً بالحديث عن بيوتاتِها ومساجِدها ووُلاتِها وتَراجمِ علمائها و... ، حتىٰ غدا موسوعةً فريدةً في الحديثِ عن دمشقَ وأحوالِها ، وبلغَ قرابةَ (٨٠) مجلَّداً منسّقاً ومبوّباً!!!

فَمَنْ ـ في هذا الزمان ـ وَضَعَ كتاباً موحداً في (١٠) مجلّدات فقط ؟

... أجل! هذا سباقُ التنافسِ بين أيديكم ، فمن

رَغِبَ في أن يُخَلِّدَ اسمَه ويدوّنه في صحائفِ القلوب ، فليستمع إلىٰ ترجمةٍ وافية مختصرةٍ عنه .

دمشقُ الشام هي كما وصفها (ابن جُبير) بقوله :

(هـي نُـزْهَـةُ الأبصـار ، وعَـروسُ الأمصـار ، ومَعْبَدُ الأبرار ، هي جنّة الشرقِ ومَطْلَعُ حُسْنِه المُشْرِق... .)

وهي كما وصفها (علي بن موسىٰ الغرناطي) بقوله :

خيِّمْ بجِلّقَ بين الكأسِ والوَتَرِ
في جنّةٍ هي ملءُ السَّمْعِ والبصرِ
وَمتِّعِ الطَّرْفَ في مَرْأىٰ محاسِنِها
ورَوّضِ الفكرَ بين الرَّوضِ والنَّهَرِ

ففي دمشقَ تتجلىٰ عَظَمةُ التاريخ... . حيث حَطَّ

فيها صُنّاعُ الحضارات ، من آراميين و بابليين و... . عربٍ مسلمين .

وإليها يتوجّه كلُّ مَنْ يريدُ العلمَ والفقهَ والحديثَ والأدبَ... ، فهي بحقٍّ كعبةُ العلومِ النافعة ، وهذا ما جعل (ابنَ عساكر) يَنْهَلُ من العلوم التي نَشأتْ أو وردتْ إلىٰ دمشقَ الشام .

ففي سنة (٤٩٩هـ) وُلد (علي بن الحسن بن هبة الله) : ابنُ عساكر .

ومنذ نعومةِ أظفارِه سَمِعَ بعضَ العلوم علىٰ يدي والدِه (ابن أبي الحسن) ، وكذلك علىٰ يدِ أمّه.. وجدّته... .

وكان (ابن عساكر) يتنقلُ بين حلقاتِ مساجدِ دمشقَ ، وبين مدارسِها ومكتباتِها ، ولما بلغَ من العمر عشرين سنة ، مات والدُه ، فعزَمَ علىٰ الرحيلِ إلىٰ العراق ، وذلك بهدفِ تحصيلِ أكبر قدرٍ

من العلوم ، ثم رحل إلىٰ خراسان وأذربيجان... .

ولما عادَ إلىٰ دمشق ، ناظرَ كبارَ العلماءِ... مما اضطرَّ الكثيرينَ منهم للاعترافِ بعلوِّ مكانتِه العلمية... ، وقد كتب (ابن عساكر) بخطِّه أن شيوخهَ يزيد عددُهم عن (١٣٠٠) شيخ و(٨٠) شيخة!!

وشاءَ اللهُ سبحانَه أن يتفرّغَ (ابنُ عساكر) للجَمْعِ والتصنيفِ والتأليفِ ، وقد بذل أقصىٰ جهدِهِ في سبيلِ ذلك ، وكان كثيرَ اللجوءِ إلىٰ الله ، وكثير التهجُّدِ ، حتىٰ قيل في تراجمِ حياتِه : (... . كان يلازمُ الصلاةَ في الصف الأول إلا من عذرٍ ، ويعتكفُ في رمضان و عَشر ذي الحجة في المَنارةِ الشرقية من المسجدِ الأموي)...

ولما وصلَ خَبرُه إلىٰ (نور الدين محمود) وكان رجلاً صالحاً يغارُ علىٰ الإسلام ، أَمَرَ بإنشاءِ

(دار الحديث النورية) وأَوْكَلَ أمرَها إلىٰ (ابن عساكر) ،

وطَلَبَ منه الاستعجالَ في إتمامِ موسوعته الضَّخْمَةِ (تاريخ مدينة دمشق) ، وقد حَدَّثَ (ابن عساكر) عن ذلك فقال :

(.. ورقيَ خبرُ جَمْعي لتاريخِ دمشقَ إلىٰ حَضْرةِ الملكِ القَمْقامِ ، الكاملِ العادلِ الزاهدِ المُجاهدِ المُرابطِ الهمام ، أبي القاسم محمود بن زنكي... . وبلغني تشَوُّقُه إلىٰ الاستنجازِ له ـ أي الإسراعِ بإنجازه ـ والاستتمامِ ، فراجعتُ العملَ فيه راجياً الظَّفَرَ بالتمام...) .

* * *

نشاطاتٌ أخرىٰ!!

لكنْ هل اكتفىٰ (ابنُ عساكر) بتصنيفِ كتابِه (تاريخ مدينة دمشق) ؟!

أبداً ، إنما صَرَّحَ ابنُه (القاسم) بأنّ أباه قد صَنَّفَ أكثرَ من ستينَ كتاباً! منها : (فضائلُ العشرة) ، و(فضائلُ الصِّدِّيق) و(فَضْلُ كتابةِ القرآن) و(الموافقاتُ علىٰ شيوخ الأئمة الثِّقات)... و(أربعون حديثاً في الحثّ علىٰ الجهاد...)..

هذا إضافة إلىٰ الدروس والفتوىٰ ونحو ذلك.. فأيُّ بركةٍ في الوقت كانت لابن عساكر ؟ وأيُّ جهودٍ جبّارةٍ قدّمها هذا الرجلُ في سبيل العلم ؟!

* * *

وهكذا تكون النهاية!!

وهكذا أمضىٰ (ابن عساكر) حياتَه كلَّها ، بحيثُ لم يَدَعْ فرصةً إلا واستغلَّها من أجلِ تحصيلِ العلوم ، أو في سبيلِ تَبليغِ كلِّ ما وصلَ إليه من علوم ، وها هي آثارُه تدلُّ عليه ، حتىٰ إذا ما كانتْ سنة (٥٧١هـ) أَسلمَ الرُّوحَ إلىٰ بارئها ، فغُسِّل وكُفِّنَ ، ثم صلّىٰ عليه خلقٌ كثيرٌ ، ودُفِنَ في مقابر باب الصَّغير في دمشقَ الشام ، فرحماتُ الله عليه ، ونفعنَا الله بعلومِه ، وجعلنا نَقتفي أثرَ أولئكم العمالقةِ ، أو نَتَشَبَّهُ بهم :

فَتَشَبَّهوا إنْ لم تكونوا مِثْلَهُم
إنّ التشبُّهَ بالكِرامِ فَلاحُ

* * *

وإلىٰ لقاءٍ قريب!!

وبعدَ ذلك ، تمَّ توزيعُ الجوائزِ الرمزيةِ علىٰ الفائزينَ في المدرسةِ الشرعيةِ ، كما تمّ اختيارُ أفضلِ مُحاضِرٍ.. وأنفع مُحاضرةٍ.. في هذا الموسِم الثقافي ،... وأكّد غالبيةُ الحضورِ علىٰ ضَرورةِ إقامةِ مِثْلِ هذه النشاطاتِ الثقافية ، ولو كلَّ حين ، كما تَمنّىٰ مديرُ المَدرسةِ أن يَتمَّ التعاونُ علىٰ طباعةِ المُحاضراتِ التي أُلقيتْ ، وأن تُجْمَعَ في كتابٍ واحدٍ ، واقترح أن يكونَ عنوانُه (روضة الحكايات) وذلك لأنها تدورُ حولَ محورٍ واحد ، هو : التعرّفُ علىٰ نماذِجَ من سِيَرِ علمائنا الكرامِ ، عسىٰ أن نَجْعَلَ ذلك أنموذجاً نهتدي به في دياجيرِ الظلامِ ، وما ذلك علىٰ اللهِ بعزيز .

ثم كان الختامُ بدعاءٍ لشيخِ المسجدِ ، وأمّنَ الحاضرونَ علىٰ الدّعاء... وصلّىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وآله وصحابته أجمعين ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

* * *